عنترة والعزلة

من أصعب ما يواجه المرء في حياته العزلة، فهي حالة تنضح بالألم الممضّ. ويواجه الإنسان مثل هذه العزلة في حالات كثيرة، منها أن يكون لونه مخالفاً للون الآخرين الذين حوله، أو أن يختلف دينه عن دين مَنْ يعيش معهم في القرية، أو أن يكون من طبقة غير الطبقة التي تشكّل مجتمعه، أو كان غريباً على تلك الدار التي هو فيها. ومثل هذا الشخص يشعر بمرارة العيش، وتنتابه هواجس جمّة، كما أنه يتزيّا بخلالٍ تختلف عما كان يعرف بها، وذلك كلّه لكي يعيش بشيءٍ من الراحة النفسية بين أُولئك القوم. بل إنه قد يجد نفسه أحياناً يركن إلى الجبن مؤثراً السلامة على خوض معركة لا طائل من ورائها.

ومن بين الخِلال التي يمكن أن يتّصف بها الإنسان، وهو في عزلته الحادّة تلك، شيءٌ كثير من الجُبن، أو قل الحرص على الحياة ـ إن أردت أن

تتفادى استعمال كلمة الجبن المقيتة ـ والشعور بأنها حياة غالية، فلا يجب أن يُفرط فيها المرء. هذا الحرص المؤدي إلى نوعٍ من الجبن يطغى على شعور الغريب لأسباب عدّة يصعب حصرها. ولكن ربما كان يعود بعضها إلى شعوره بأنه من غير نصير في المواقف الصعبة، وأنه لن يجد مَنْ يقف إلى جانبه، أو يحمي ظهره وسط الغوغاء والذين يحيطون به. ولذلك، فإنه يُؤثر السلامة، ولا ينخرط في تيّارات الصراع الذي قد ينشب مع شخصٍ آخر أو أشخاصٍ آخرين ممن حوله، وممن تحدوهم الكثرة التي هم فيها إلى التنغيص على هذا المصاب بالوحدة والعزلة. وعلى قدر ما يتجنّب مثل هذا المرء الدخول في صراع مع أُولئك المغامرين المعتدين الذين ينعمون بكثافة ذويهم وأهلهم نحو هؤلاء، ينشط هؤلاء إلى تجريحهم بالكلام والفعل اعتماداً على كثرتهم.

وما يقال عن الشجاعة عند الكثرة، والجُبن عند القلّة أو في العزلة والوحدة، يقال أيضاً عن عنترة وموقفه من أبناء قبيلته بني عبس، كما يقال أيضاً بشكل أقوى عن موقفه بين خضمّ العرب عامّةً. ولو كان هذا الشخص الذي نتحدّث عنه غير عنترة، لَما عَجِبْنا إنْ قيل لنا بأنه كان جباناً حريصاً على الحياة، بخلاف كل

أفراد القبائل العربية الأخرى. بيد أن عنترة لم يتّصف مطلقاً بالجُبن، أو الخوف من الموت، أو الحرص على الحياة؛ كما أنه لم يكن يفرّ من مواقف كتلك المواقف التي عاش لها في الجزيرة العربية.

كانت شجاعته لا تعرف الميل إلى الحرص على الحياة، كما أنه لم يكن يعبأ بعُزلته، وعدم وجود مَنْ يقف معه في القتال من أبناء عمومته العبسيّين. وكان يرى لونه الأسود وسط وجوههم المتألّقة، ولكنه لم يجد في ذلك مدعاة للشعور بالوَجَل. وكان يقبل التحدّيات من أبناء عبس، وممّن لم يكن عبسيًا؛ لأنه كان ذا كفاءة تامّة لمواجهة مثل تلك الأحداث المقيتة.

كانت مُثُله العليا في الحياة هي التي تعدّ له السُّبُل التي يريد أن يسلكها، وهي التي تُنير له الطريق، لذلك فإنه لم يترك للحياة مدخلاً إلى قلبه يُضعف عزيمته، كان يرى عزلته في المعركة، فيقول:

لما رأيتُ القومَ أقْبل جَمْعُهُمْ

يتذامرون كررتُ غير مذمَّمِ

يدعون عنتر والرماح كأنها

أشْطان بئر في لَبان الأدهم

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمَها

قِيلُ الفوارس ويك عنتر أقْدِم

هكذا استقرّ رأي عنترة على أن يكون وحيداً فريداً في المعركة، لا يبالي بمن كان يقاتله أو مَنْ فرّ من أصحابه، فإذا به يهجم على الأعداء المتكاثرين لينثر رؤوسهم على الصعيد.

ولكن هل كان عنترة في عزلته الشخصية والوطنية تلك يقف وحده دون أن يكون له صديق يُقاسمه السرّ والعَلَن، والأمل والألم، وهل كان عنترة لا يشعر بتلك الوحدة، ولا يأبه بها؟

الواقع إنه كان ذا حساسية مُفرطة، ولهذا فقد كان يشعر بمضاضة تلك العزلة ومرارتها، وكانت القطيعة تقضّه حتى اضطرّ إلى الشكوى في بعض ما قال من أبيات؛ فهو يقول في إحدى هذه المناسبات:

أُعادي صَرْفَ دهرٍ لا يُعادَى

وأحتمل القطيعة والبعادا

وأخمِلُ نُضحَ قوم ضيّعوني

وإن خانت قلوبُهُمُ الوِدادا

أُعَلِّل بالمنى قلباً عليلاً

وبالصبر الجميل وإن تمادى

القطيعة التي كان يعاني منها عنترة ليست قطيعةً بعد مواصلة، ولكنها قطيعة تمتدّ جذورها إلى الأعماق النفسانية السحيقة، وإلى البحر الأحمر الذي قطع ما بين إفريقيا وآسيا، وبين الحاميّين والساميّين. وهو، وإنْ كان همزة الوصل بين العنصرين الحامي والسامي، إلاّ أنه كان أداة وصل بارزة المعاني إذ طُلِيَ جسمه بلون فيه بعض السواد. وكان هذا أهمّ ما يميّزه عن بقية أبناء عبس، الذين كانوا في لون البشرة العربية التي تختلف عن البشرة الحامية. وكان عنترة مَعْلَماً ظاهراً في السِّلم والحرب في سائر أنحاء الجزيرة العربية. وكانت الأعين تميزه عن بعد، ولا تُخْطِئه النظرات، بل إن الإنسان ليتصوّر أنّ أفراد القبيلة، وخاصة الرجال منهم، كانوا يَنْأوْنَ عنه، وربما كانوا يتجنّبون مخالطته ومجالسته.

لم يكن الأمر كذلك فحسب، بل إن والده شدّاد بن قراد العبسي كان يزورّ عنه عند لقائه، رغم أنه تبطّن والدته زبيبة رغم الاختلاف بينهما في لون البشرة، ولربّما كان شدّاد غير عنصري بلغة أهل زماننا، ولذلك فإنّه اتّخذ من زبيبة ظعينة له، وتبطّنها حتى أولدها

عنترة. ولا نعلم من الرُواة إخوة أشقاء لعنترة، فلعلّه كان وحيد أبويه، ولعلّ والده لم يُنجب غيره. وقُدّر لعنترة أن يكتسي بكثيرٍ من لون والدته، وربما بقليلٍ من لون والده. وكان لونه الخلاسي الذي وُلِد به لا يروق لأحدٍ حتى ولا لأبيه شدّاد، ومَنْ يدري فقد تكون الأُمّ زبيبة هي الأخرى غير راضية بسمرة عنترة الدّاكنة؛ إذ ربما كانت تريده أن يكون في سواد الأبنوس، ورَوْعة اللّيل البهيم. على أنها لم تَبُخْ بما في نفسها إلا لماماً مثل مجيئها تلك الليلة لعنترة، وهي تحذّره من مغبّة الاشتراك في حروب القبائل العربية التي لا تنتهي، وصراعاتهم التي ما زالت قائمة على قدم وساق حتى يومنا هذا، والتي عاقبتها وخيمة على مرّ العصور. وفي تلك الليلة كانت زبيبة في منتهى العقل، وكان عنترة في أحلك ساعات العُزلة والغربة يصارع نفسه، وتصارعه نفسه وهو مُقبلٍ على حربٍ لا يدري أهي حربه أم حرب الآخرين؟ ولم يكنِ معه أحد ليبوح له بمأساته، ولم يكن متأكّداً من أن أُمّه إنما تنصحه بالأمر الأفضل في مثل عزلته تلك، ووحدته القاتلة. وكم هو أمر قاتل ألاّ يجد المرء من يُسِرّ إليه بسرّه، ويُشركه في أمره، تلك هي كانت حال عنترة في كثيرٍ من أيّام حياته.

كان عنترة يعاني من جحود والده، وعدم عطفه

عليه. ولا نرى أن شدّاداً كان مخلصاً في إبعاده لعنترة، وأنه كان يفعل ذلك عن رضى. ولكنه كان يساير المجتمع الذي دأب على هذا النوع من الاتّجاه العنصري الذي كان سائداً في العالم أجمع. وفي الوقت الذي كانت فيه زبيبة تحثّ عنترة على عدم إقحام نفسه في القتال مع العبسيّين، كان أبوه يحضّه على حماية الحريم، وإعادة السبي والغنائم، وكان عمّه يقف بجانب أخيه شدّاد ليطمئن على أن عنترة لن يتقاعس. ويبدو أنه لم تكن لعنترة أخوات، ولا لشدّاد بنات، ولكن لأخيه ابنة هي عبلة، وكان لا يريدها أن تُسْبى مع السبايا. لهذا كان يريد أن يطمئن على تحريض أخيه شدّاد لعنترة للحاق بالمُغيرين وإعادة السبايا.

إزاء ذلك الموقف الذي كان بمثابة معاهدة بين عنترة وأبيه وعمّه، رأى عنترة أن ينتهز الفرصة ويأخذ عهداً من والده بالاعتراف بأُبوّته وإلحاقه بنسبه، ويصبح عبسيًّا بعد ذلك. وما أعجب تلك الطقوس العربية في إلحاق ابن الجارية بنسب العربيّ. لقد كانت أمراً مقبولاً، وعملاً شفويًّا، ومعاهدة غير مكتوبة، ولكنها كانت معترفاً بها في الجزيرة العربية. وكان عمّه يسعى إلى أن يُورده المهالك، وكان ينظر إليه بعينٍ لا تخلو من ازدراء

به على أنه غير قادر على إرجاع السبايا والغنائم إلى بني عبس. وكانت نظراته جارحة، وابتساماته، أو انفراجات شفتيه فيها ما فيها من تشفٍّ وحقد. كان العمّ عاملاً مؤثراً في عزلة عنترة ووحدته، وكان ينفث الشرّ في وجه ابن أخيه، كما كان دافعاً لعنترة في أن ينهض من مقامه، ويحمل سيفه، ويشترك في أوّل معركة، ولم يَنْته من معاركه إلاّ بانتهاء حياته. لقد هجر عزلة السِّلم، ودخل في معمعان المعارك حيث لا يتحدّث الفوارس إلا بالضرب بالسيوف، والطَّعن بالرماح، والتدافع نحو القتال. فكيف يا ترى كان عنترة في كلّ ذلك.

كان عنترة لا يرى في ميدان الحرب من محاربٍ آخر غير نفسه، وكان أعداؤه لا يرون عدوًّا آخر غيره. وكانوا في كثرةٍ طاحنة، وكان وحيداً فريداً في الميدان العبسي. كانوا لا يريدون غيره، ولا يرغبون في قتل سواه. ولذلك فقد عرف ذلك فيهم، فلم يشأ أن يشفي لهم غليلاً بقتله، ولكن أراد أن يزيدهم حسرةً بقتلهم؛ لأنهم كانوا يَدْعون عنتر والرماح كأنها أشْطان بئرٍ في لِبان الأدهم، حتى يقول:

ما زلتُ أرميهم بثُغْرة نحرِهِ

ولَبانِهِ حتى تسربل بالدم

فازورَّ من وقع القنا بلَبانه
وشكا إليَّ بِعَبْرةٍ وتحمحم

وقبل عنترة تحدّي عمّه، ونظرات الازدراء، وابتساماته الخبيثة، ودخل أوّل معركة له ضدّ أعداء عبس، وأعاد السبي والمال، وهزم الأعداء، وأُلحق بالنسب العبسي، وقبل عمّه أن يزوّجه عبلة، ولكنه كان ينوي الغدر به. ورغم كل هذه الانتصارات الأدبية والحربية إلاّ أن عنترة ما زال قابعاً في عزلته المريرة، وكان كثيراً ما يردّد أبياتاً منها قوله:

إن كنتُ في عدد العبيد فهِمَّتي
فوق الثُّريا والسّماك الأعْزَلِ

بل كَثُرت أبياته الشعرية التي كانت تنطوي على العزلة والوحدة. ويشير هذا البيت إلى أنه كان لعبس عدد من العبيد غير عنترة، وأنه رغم ذلك، فإنّ عنترة كان يشعر بالعزلة وهو معهم، ولئن كان يُشاركهم في العبودية، أو اللّون، أو الطبقة، إلاّ أنه لم يكن في عقله ليقبل بتلك العبوديّة، وكان ينأى بنفسه عن مجتمع العبيد، وسلوكهم، ومُثُلِهم، فأصبح لا هو منهم ولا من أسيادهم منذ فجر حياته؛ إذ شغل نفسه بالفروسية والضرب والطّعن حتى يبزّ الأحرار في ذلك

الميدان الذي احتكروه لأنفسهم. وكان عنترة عالي الهِمّة إلى الدرجة التي ارتفع فيها عن كلّ شخصٍ آخر. وكان هذا الموقف يحزُّ في نفسه، ويزيده مرارة وحسرة؛ لأنه ما كان يروق له أن يكون وسط أُولئك العبيد، وهو الذي يفوق كل شخصٍ آخر في الفروسية وعلوّ الهمّة. وازدادت عزلته بينهم؛ إذ لم يكن فيهم مَنْ كان في مهارته القتالية وهمّته، فكيف يعيش بينهم وهم على ما هم فيه من عيشٍ حقير، ومكانة مزرية، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من عبيد المدنيات التاريخيّة.

لذلك، فقد كانت الهُوّة بينه وبين سائر العبيد سحيقة واسعة. وبوجود مثل تلك الهوّة، فإنه لا يتوقّع أن يكون هناك ترابط بين عنترة وبين مَنْ كان في مثل لونه أو عنصره. لقد كان هؤلاء العبيد لا شيء في الهيكل القبلي، وكان عنترة يريد أن يكون كل شيء، فإذا عنَّ له أن يكون كل شيء، فإنّ عليه أن ينضمّ إلى أفراد القبيلة، ولكن كان هؤلاء يفرّون منه فرارهم من الأجرب. ولذلك، فقد أصبح عنترة في عزلة تسخر منه، ولم يكن قادراً على تضييق تلك الشقّة بأعماله الباهرة.

وقد تبلغ العزلة به أحياناً مبلغاً عظيماً، ولكنه كان

يتحمّلها رغم مصاعبها النفسانية؛ كما جاء في بعض أبياته، مثل:

ولقد أبيتُ على الطّوى وأظلّه

حتى أنال به كريم المأكل

ومع أنّ هذه الحالة يشاركه فيها كثير من عرب الجاهلية الذين كانوا يستخلصون طعامهم بسيوفهم، إلا أنها حين تأتي من فارسٍ يؤكّد أنه بمساعدة رمحه وسيفه يستخلص ما يشاء وينال المعالي، فإنّ أمره يستحقّ منّا الاهتمام والإعجاب أيضاً، وها هو هنا يضيف مُنشداً:

وبذا بلي ومهنّدي نلتُ العلا

لا بالقرابة والعديد الأجزل

ذكر الرواة تفاصيل حادثة أُسيء بعدها إلى عنترة، مفادها أن بني عبس غزت في إحدى المرّات بني تميم، وكان سيد عبس وزعيمها آنذاك قيس بن زهير بن جذيمة العبسيّ، فأغار بقومه على بني تميم، ولكن صمد له هؤلاء، وتمكّنوا من الانتصار على فرسانه، وركنت بنو عبس إلى الفرار من وجه بني تميم الذين أخذوا يتعقّبونهم، وطلب العبسيّون النجاة، وليس هناك منهم مَنْ يصدّ هجوم بني تميم.

فرأى عنترة موقف قومه الذين لجأوا إلى الفرار، فوقف على ظهر فرسه في البَيْداء يحمي ظهر قومه مِنْ كل تميميّ أراد اللّحاق بالعبسيّين الفارّين، وفيهم قيس بن زهير العبسي. ولم يقف معه أحد من بني عبس في ساحة الوغى ليشكّل حائط صدّ أمام الهجوم التميميّ. وبذلك نجا الفارّون من بني عبس من سيوف بني تميم بفضل رباطة جأش عنترة دون غيره من الرجال، وكان قيس بن زهير قد رأى ما صنع عنترة، فحسده على بلائه العظيم، وموقفه الجسور؛ لأنه أصبح حديث الناس لِمَا أبداه من بطولة في المعركة، فقال قيس حين رجع إلى الحيّ بعد إغارته الخاسرة، وكان كما وصفه الرواة ـ أكولاً ـ قال: ما حمى الناس إلا ابن السوداء. وبلغ هذا الحديث عنترة، وعرف ما يُضمره له قيس من مشاعر الكراهية والحسد، فأخذ ينفس عن نفسه بهذه الأبيات:

لـمّـا سـمـعـتُ نـداءَ دُمَّـرةَ إذ عـلا
ونـداء عبسٍ في الـوغى ومُحَلَّلِ
نـاديـتُ عـبسـاً فـاستجابوا بالقنا
وبـكـلّ أبـيـض صـارمٍ لـم يـنـحـلِ
حـتـى اسـتـبـاحـوا آل عـوف عَـنْـوةً
بـالـمـشـرفـيّ وبـالـوشـيـج الـذُّبَّـل

إني امرؤ من خير عبسٍ منصباً
شطري وأحمي سائري بالمنصل
إن يلحقوا أكرُرْ وإن يُسْتَلْحَموا
أشدُدْ وإن نزلوا بصَنْكٍ أنزل
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحمت
أُلْفِيتُ خيراً من معمٍّ مُخْوِل

فعنترة يشعر بأهميّته في الحرب، ومكانته السامية هناك. أمّا إذا انتهت المعارك، ووضعت السيوف في القُرُب، فإنه لا يعدو أن يكون في نظر قيس وأمثاله مِنَ الذين يبالغون في أكل لحوم الناس سوى ابن السوداء، بينما يختلف موقفه في ساحة الوغى؛ لأن قومه يعرفون مكانته السامية التي تحميهم. ولذلك، فإنّ لسان حاله يقول سرًّا وعلانية: «عاشت الحرب القبلية».

وهناك في سعيرها يجد الدّفء والتقدير من الرجال والنساء على حدٍّ سواء، بل إن العبيد أيضاً يجدون فيه بطلهم الذي يريدونه في منامهم ويقظتهم، والسيد الحقيقي للقبيلة التي لولاه لكانت تعيش في أسوأ حالٍ من جرّاء غزوات جيرانها من القبائل الأخرى.

تظهر عزلة عنترة بشكلٍ أوضح إذا ما قُورِن موقفه وهو بين قبيلته عبس بموقف رصفائه من فرسان

المعلّقات، وأبطال العرب الآخرين في عصر الجاهلية، وفي أشعارهم التي نظموها حسب تجاربهم في الحياة. ولعلّ جوانب من هذه المقارنة تبرز بصورةٍ واضحة إذا ما قُورن قول الشاعر عمرو بن كلثوم في معلّقته المشهورة الرصينة الرائعة ببعض ما قال عنترة من شعرٍ حول إظهار عزلته، وتوضيح عمرو للعمل الجماعي الذي كان يشترك فيه؛ فمعلّقة عمرو بن كلثوم التي مطلعها:

ألا هبّي بصحنك فاصبحينا

ولا تبقي خمور الأنْدَرينا

كانت مثل معلّقة عنترة تتحدّث عن القتال والنِّزال، كما كان عنترة يتحدّث عن المعارك في كثير غيرها من القصائد. وكان عمرو بن كلثوم يعالج نفس التجربة، ولكنهما كانا يختلفان في أشياء جوهرية، فقد كان عمرو بن كلثوم في كل خطواته في الحرب، وفي كثيرٍ من كلماته يُحاط بجماعة كثيفة من أبناء قبيلته، ينصرونه وينصرهم، يتقدَّمون ويتقدَّم معهم، وينتصرون في آخر الأمر وينتصر معهم؛ فهو في جمع يؤازر بعضه بعضاً، ويقتسم النصر. أمّا عنترة، فقد كان في موقف مختلف

تماماً. حقيقةً إنه كان يحارب، ولكنه كان وحده، وكان الأعداء ينهزمون أمامه، ويُوَلّون الأدبار، ولكن خوفاً من ضرباته الفتّاكة. ولم يكن يشعر بوجود الآخرين، ولم يُشعروه بوجودهم. دعونا ننظر إلى عمرو بن كلثوم في معاركه التي بدأت بقتله للملك عمرو بن هند، فهو يقول:

ونحن غداة أُوقِدَ في خَزازَى
رفدنا فوق رفد الرّافدينا
فكنا الأيْمَنين إذا التقينا
وكان الأيسرين بنو أبينا
فصالوا صولة فيمن يليهم
وصُلْنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالنُّهاب وبالسبايا
وأُبْنا بالملوك مصفدينا

فهو هنا فارسٌ جَمَعَ الجموع من بني أبيه وبني عمومته، وصالوا جميعاً في الحرب لم يتخلّف منهم أحد، ولسان حالهم يقول: «الموت مع الجماعة عرس». وهذا موقف يختلف عن موقف عنترة الذي كان قد انفلت إلى المقدمة، وحسب أن الحرب حربه، والمعركة معركته دون غيره من الناس، فقال:

لـمّـا رأيتُ القوم أقبل جمعُهُم

يـتـذامـرون كـررتُ غـيـر مـذمَّـم

يـدعـون عـنـتـر والـرمـاح كـأنـهـا

أشـطـان بـئـر فـي لـبـان الأدهـم

مـا زلـت أرمـيـهـم بـثـغـرة نـحـوه

ولَـبـانـه حـتـى تـسـربـل بـالـدم

فهو هنا وحده يرى القوم وهم ينادونه بالاسم، ولا يريدون غيره. إذن هذا يؤكّد أنها حربه وحده، فلِمَ ينتظر الآخرين؟ ويتقدّم عنترة نحو أعدائه رغم شكوى جواده، ويُوضح عنترة فعاله البيضاء رغم عزلته في المعركة التي لا يشاركه فيها إلا فرسه ورمحه وسيفه، ويصف حاله:

إذ لا أزال عـلـى رحـالـة سـابـح

نَـهْـدٍ تـعـاورَهُ الـكُـمـاةُ مـكـلَّـم

طـوراً يـجـرّد لـلـطّـعـان وتـارةً

يأوي إلى حصـد القـسِيّ عرمرم

وكانت كل تلك الطعنات والسّهام قد أُطلقت عليه، ولكن بعضها أصاب جواده. ورغم كثرة ما أطلق منها، فإنه لم يهرب من الميدان، بل وقف صامداً حتى جاءت إليه نازلة جديدة:

ومدجّجٍ كَرِه الكماةُ لقاءه

لا ممعن هرباً ولا مستسلم

جادت له كفي بعاجل طعنة

بمثقَّفٍ صَدقِ الكعوب مقوَّم

فشككت بالرمح الأصم ثيابه

ليس الكريم على القنا بمحرم

وهو هنا يصف هذا الفارس المدجّج بالسلاح، ويتحدّث عن شجاعته وهو يُقدم نحوه، ولكن الأقدار لها فعلها، فقُتل بطعنة رمح صقيل حسن الصنعة، مستقيم القناة. ولا نجد في هذه الآونة أحداً مع عنترة، بل كان وحيداً يخترق صفوف الأعداء حتى يصل إلى بطلٍ آخر. وكان هذا الآخر كريماً يغدق على ما يبدو مما يكسب من أسلاب وغنائم على الآخرين، وتجهّم وجهه حين رأى عنترة يريده، وابتسم ابتسامة قرأها عنترة، وعلم أنه كان يتوقّع ملاقاته في حومة الوغى، وها هما يلتقيان وجهاً لوجه. ولم تكن ابتسامة هذا الفارس ابتسامة حسن استقبال، بل كانت عن رغبة في النكاية بعنترة، وترك كلّ منهما مَنْ كان حوله مِنْ مقاتلين، وانفردا ببعضهما بعضاً لكي يدخلا في مباراة متعادلة الكفّتين. وشعر كلّ منهما بأنه وجد خصمه الذي

يريده، لا أُولئك الذين يموتون قبل أن يصرعوا. واشتبكا في مبارزة حامية، ولعلّ الفارسين تقارعا بالسيوف، وتطاعنا بالرماح فترة من الوقت، ثم صالا وجالا، ثم حدث ما كان متوقّعاً، إذ طعن عنترة منافسه بالرمح، لم يكتفِ بذلك، بل استلّ سيفه من قرابه، وضرب الفارس بالصارم القوي، وقضى عليه بعد أن قطع دروعه التي كانت تحميه. لم يكن مع عنترة أحد من رفقائه، بل كان وحيداً ووصف اللقاء بهذا الفارس كما وصف درعه الحصينة:

ومشَكٍّ سابغةٍ هتكت فروجها
بالسيف عن حامي الحقيقة مُعْلَمِ
لما رآني قد قصدت أُريده
أبدى نواجذه لغير تبسّم
فطعنته بالرمح ثم علوتهُ
بمهنّد صافي الحديدة مخذم

كل شيء في القتال محدّد عند عنترة، فالفارس الخصم مُعْلم، وشهرته ذائعة، ودوافعه للقتال معروفة مُعلنة، فهو يريد رأس عنترة ولا شيء آخر. وكان عنترة يغري الفوارس بوقوفه وحيداً في الميدان بلونه الأسود، ومهارته في اقتطاف النفوس.

في حروب عمرو بن كلثوم تظهر أهمية الأعمام والأخوال وبني الأعمام، ورجال القبيلة؛ فالجميع يجتمعون لملاقاة العدوّ، والعمل على هزيمته. أمّا عند عنترة، فإنّه لا يُرى إلا هو فقط، ولا غيره فهو طِلْبةُ الأعداء. إنه يحارب وحيداً في ميدان الحرب، ولا يعتمد على غيره. ولكنه لا يُسيء إلى أبناء قبيلته، ولا يصفهم بالجبن، أو يعيّرهم بالنكوص، أو يُعيبهم بالخذلان. بل كان يبرز أهمية الدور الذي يقوم به دون أن ينال من كفاحهم. ومقارنة أخرى بينه وبين ابن كلثوم نجد أن عَمْراً يتحدّث عن جموع قبيلته وما كانوا يفعلون، ويذكّر عمرو بن هند بمآثرهم بعد أن اغتاله في مجلسه، فقال له:

وقد علم القبائل من معدٌّ
إذا قببٌ بأبطحها بنينا
بأنا العاصمون إذا أُطعنا
وأنا الغارمون إذا عُصينا
وأنا التاركون لما سخطنا
وأنا الآخذون لما هوينا

أو كقوله:

أبا هندٍ فلا تعجل علينا
وأنظرْنا نخبِّرْك اليقينا

بـأنـا نُـورد الـرايـات بـيـضـاً

ونـصـدرهـنّ حـمـراً قـد رويـنـا

ففي كلمات ابن كلثوم جلبة ما بعدها جلبة، وحركة فيها صخب وهياج، وأمواج من الناس وأفواج. أمّا قول عنترة، فيوحي بالأزمات النفسية التي يواجهها الإنسان في الوحدة، وفي ميادين الحرب حين يخشى على نفسه أن يموت وحيداً. وكل شيء ساكن في أبيات عنترة، وحتى قتلاه كانوا في عزلة طاحنة حين يصف أحدهم قائلاً:

فـتـركـتـه جَـزَرَ الـسـبـاع يَـنْـشَـنـهُ

يَقْضُمن حسن بنانه والمعصم

ومن يدري، فقد لا تكون السباع هي التي تأكله، ولكن ربما كانت الضباع، واختار عنترة السباع ليفخم المأكلة. هذه السباع أو الضباع وغيرها والقشاعم التي يذكرها عنترة في مجالٍ آخر، تُثبت أن كل شيء في تصوير عنترة ثابت قاتم ثبات الموت وفي سكونه؛ فالابتسامات ساكنة ليس لها صوت حتى ابتسامات السيوف التي تذكره بثغر عبلة. والضرب بالسيوف سريع يأتي من يد بطل مجرّب، والفرس لا تتحرّك من شدّة الزحام في المعركة. وهكذا يجد عنترة نفسه في ضيقٍ

شديد لا فكاك منه، ويزداد شعوره بالوحدة والعزلة. ثم تصل به الحال إلى أنه بالرغم من كل ما حدث له من متاعب جسمانية ونفسانية إلاّ أنه سعيد بخاتمته تلك، ويقول:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها
قِيلُ الفوارسِ ويك عنتر أقدمِ
ولقد خشيت بأن أموت ولم تَدُرْ
للحرب دائرة على ابْنَيْ ضمضم
الشاتميْ عرضي ولم أشتمهما
والناذريْن إذا لَم الْقهما دمي
إن يفعلا فلقد تركت أباهما
جَزَر السباع وكل نسر قشعم

ففي هذه المناسبة كان عنترة يخشى أن يموت قبل أن يكون قد وفّى بديونه التي عليه من بيع النفوس في ساحات الوغى. لقد كانت في نفسه بقية من ابني ضمضم اللذين نذرا بأن يقتلاه كما قتل أباهما، وكان يأسف أن تحين منيّته قبل أن يُزهق أرواحهما. ولكن كان يعزّيه في ذلك أنه سبق له أن قتل أباهما، وتركه مجندلاً في الفلاة تقتات السباع والقشاعم من أشلائه. وكان ابنا ضمضم قد شتماه،

ولا شكّ في أنهما نعتاه بابن السوداء. وعلى كل حال، فإن لم يستطع أن يقتلهما في حياته، فقد كفاه أنه ملأ قلوبهما حسرةً على قتله لأبيهما. وكان هذا الكلام يوضح عزلة عنترة كما يراها، ويشعر بها؛ فللفارس ضمضم ولدان نذرا حياتهما لقتل عنترة، ولكن لم يكن لعنترة من يتولّى قتل أعدائه بعد موته، ولذلك فقد كانت تقتله الحسرة. وكان وراء ابني ضمضم قبيلتهما، ولكن عنترة لم يكن لينظر خلفه ليرى عمّا إذا كان هناك في الصف مَنْ يقف وراءه إذا ما تولّى. لقد كان الأوّل في الصفّ والأخير؛ لأن ذلك هو شعوره، وتلك هي تجربته في الحياة العبسيّة.

لم يستطع عنترة أن يفتخر كثيراً ببني عبس وهم معه في ساحة القتال، وما ذلك إلا لشعوره بالوحدة. ولكن كان يعزيه أن هناك شخصية واحدة في بني عبس هي التي تزن الآخرين. لقد كانت تلك الشخصية هي كل ما يدفعه إلى إبراز مواهبه القتالية، وكانت هي الوحيدة التي يثق بمشاعرها ووقوفها إلى جانبه، ولذلك فقد كان يفعل كل ما يستطيع ليجعلها مرفوعة الرأس في ذلك الخضمّ القبلي. كانت تلك الشخصية هي عبلة التي كانت وراء كل عمل عظيم قام به، فهي التي جعلته منذ

صغره يأنف حياة العبودية، وحثّته على شقّ طريقه في الحياة كفارس. وكان يذكرها في كل معترك حربي أو نفساني؛ فممّا قاله في ذلك:

سلي يا عبل عَمْراً عن فعالي
بأعداك الألى طلبوا قتالي
سليهم كيف كان لهم جوابي
إذا ما فال ظنّك في مقالي
ولمّا أوقدوا نار المنايا
بأطراف المثقفة العوالي
طفاها أسودٌ من آل عبسٍ
بأبيضِ صارم حسن الصقال

هكذا عاش عنترة في ديار عبس وحيداً في فروسيّته، فريداً في لونه، يعيبون سواده إن بزغ نجمه في ساحة الحرب، ولا يشكرون تفانيه إن حمى الديار. ومع كل ذلك، فقد كان يجد في نفسه الرغبة في الافتخار ببني عبس مرّة بعد مرّة، ويذكر أعمالهم الباهرة:

لله درّ بني عبس فقد نسلوا
من الأكارم ما قد تنسل العرب

لا أبعد الله عن عيني غطارفة

إنساً إذا نزلوا جناً إذا ركبوا

أسود غابٍ ولكن لا نيوب لهم

إلاّ الأسِنّة والهندية القُضُب

ويزداد شوق عنترة لعبلة أكثر ما يزداد حين تبعد به الأسفار عن موطنه، ويزداد الشوق حرارة حين تكتنف تلك الأسفار مواقع حربية لا يُعرف لها مصير. وكان عنترة من أُولئك الشبّان العرب الذين خاضوا غمار حرب ضدّ الفرس وهم يذودون عن النعمان بن المنذر ملك العرب، فلما وقع عنترة أسيراً بين جموع الفرس الغفيرة تذكر عبلة وهو في ذلك الأسر، فكان ممّا قاله:

فَخْرُ الرجال سلاسل وقيود

وكذا النساء بخانق وعقود

يا دهرُ لا تبقي عليَّ فقد دنا

ما كنتُ أطلبُ قبل ذا وأريد

فالقتل لي من بعد عبلة راحة

والعيش بعد فراقها منكود

يا عبل قد دنت المنية فاندبي

إن كان جفنك بالدموع يجود

يا عبل إن سفكوا دمي ففعائلي
في كل يوم ذكرهنّ جديد
لهفي عليك إذا بقيت سبيةٍ
تدعين عنتر وهو عنك بعيد
ولقد لقيت الفرس يا ابنة مالك
وجيوشها قد ضاق عنها البيد
يا عبل كم من جحفلٍ فرقتُهُ
والجوُّ أسود والجبال تميد
فسطا عليّ الدهر سطوة غادرٍ
والدهر يبخل تارةً ويجود

وممّا لا شكّ فيه أننا نشاركه في مأساته التي وقع فيها عندما أسرته جموع الفرس. وكان قد يَئِس من الحياة وهو في أيديهم، وأيقن بأن الموت قد دنا منه دنوًّا عظيماً، وشعر بكثير من الحزن على نفسه، ولكنه كان أكثر حزناً على مصير عبلة بعده. لقد كانت عبلة في منعةٍ وأمان، وهو حيٌّ طليق يخطر فوق ظهر فرسه، ويلعب بالصوارم والأسِنّة. ولكن ماذا سيكون مصير عبلة بعده وهو بعيد عن ديارها، وبينه وبينها الفيافي والأنهار مثل دجلة والفرات، وكان مقيّداً بالسلاسل والأغلال وسط جموع الأسرى الآخرين من العرب. وربما كان هو وحده

الأسود بين أُولئك الأسرى من العرب ذوي البشرة العربية اللّون؛ فانتابه شعورٌ بالأسى لعزلته وهو وسط أبناء العروبة، فحزن على أنه لم يعطِ الصارم والرمح حقّهما من الضرب والطّعن. ولم يكن أسفه على من فلت من يده في معارك العرب، ولكن كان أكبر لأن سيفه ورمحه لم يرتويا من دماء الفرس. ولم يستطع أن ينام طيلة لياليه وهو في الأسر؛ لأنه كان خائفاً على مصير عبلة. وكان يشعر بأن هناك مَنْ يتربّص بها، ومَنْ يريد أن يسبيها بعد ما سمع بشعره فيها، وكان يحس بجريرته العظيمة لأنه قال فيها ما قال حتى شجع مغامري العرب لسَبْيها. وكان يظن أن هناك مَنْ يريد أن يسبيها ليُشعرها بمرارة السَّبي، ولهذا كاد يبكي أو بكى. وكان البكاء بينه وبين عبلة متبادلاً، فهو يبكي في البعد خوفاً عليها من سطوة المغيرين، وكان يشعر بأنها ستبكي عليه من سطوة الدهر الغادر. ولم يكن أحدهما من قبل قد عرف أن للدَّهر سطوات عليهما. وكان أن عرف عنترة أخيراً أنّ الدهر يجود تارة، ويبخل مرّات.

عندما ذهب عنترة إلى بلد الأعاجم لمحاربتهم هو وأقرانه من عرب الجزيرة كان جذل الفؤاد، فرح القلب، يحسب أنه ذاهب لنزهة من النزهات التي اعتاد عليها في بيداء الجزيرة. ولم يكن يعرف أنه سيلاقي

جيشاً كبير العدد، له فرسانه ومشاته، وله ميمنة وميسرة وقلب. كان يعتقد بأنها حربٌ كالإغارات التي يقوم بها أعراب القبائل والتي تُشنّ عند الفجر أو قبله بقليل، وتنتهي عند بزوغ الشمس. ولذلك فقد كان يمنّي النفس ببطولات جديدة يضيفها إلى بطولاته في الأرض العربية.

ويبدو أنه وأقرانه، أوّل أمرهم، التحموا بمقدمة الجيش الفارسي، وهنا أرسل عنترة هذه الأبيات التالية بعد الاشتباك الخاطف الأولي الذي اعتادوا عليه في الجزيرة، وحلّت الهزيمة بمقدمة الفرس، ووصلت الأبيات عن طريق البريد الجوي في ذلك الزمان، أي عن طريق الرِّيح والنسيم والصّبا، وعلمت عبلة بكفاحه ولم تكن تجهله، كما أنه كعادته طلب منها أن تسأل غيره عمّا فعل بأبناء الأعاجم:

سلي يا عبلة الجبلين عنّا
وما لاقت بنو الأعجام منّا
أبدنا جمعهم لما أتونا
تموج مواكب إنساً وجنّا
ورامـوا أكلنا من غير جوع
فأشبعناهم ضرباً وطعنا

ثم يمضي فيقول:

أنا الحصن المشِيدُ لآل عبس
إذا ما شادت الأبطال حصنا
شبيه اللّيل لوني غير أني
بفعلي من بياض الصبح أسنى
جوادي نسبتي، وأبي وأُمّي
حسامي والسِّنان إذا انتسبنا

وهكذا كان عنترة قدوة لغيره من السُّود، فهو إن أظلم لونه فإنه استعاض عن بياض البشرة ببيض الفِعال. وكان في ذلك خير من يُقْتدَى به سواء أراد ذلك أبناء القارة السوداء، ونعني بها إفريقيا، أم أبناء القارة الصفراء ونعني بذلك آسيا.

ظلّت تلك النزهة تراود عنترة بعض الوقت قبل أن يحتدم القتال مع جيش الفرس النظامي اللّجب الذي كان أضعاف عدد المقاتلين العرب. واستمرّت المعارك دون أن تتوقّف، ودخل المقاتلون العرب في تجربة جديدة لم يعهدوها من قبل؛ فهناك جيش نظامي ضخم، وقواد من جميع الرُّتب العسكرية، وفيالق من مختلف الأحجام، ودساكر متفاوتة العدد، وربما أفيال ومشاة يلبسون الدروع، ويحملون التروس، وجماعات لا حصر لها من

الرماة. وربما كان هناك الطُّهاة والحدادون والسعاة، وكلّ أنواع الحرف الحربية. وأحاط الجيش الفارسي العرمرم بمقاتلي العرب إحاطة السوار بالمعصم، وضيّقوا عليهم الخناق، فما كان إلا أن وقع كثير من العرب في الأسر.

هناك في ظلّ ملك كسرى شاهد هؤلاء الأسرى حضارة ومدنية لم يكن لهم بها سابق معرفة، وكانوا يتهيّبونها في الماضي، وجاء العسكر بالأسرى الذين كان من بينهم عنترة، ورآه كسرى، وعرف من سواد لونه أنه ربما لم يكن عربيًّا قُحًّا، وربما ذهب به رأيه إلى أنه إفريقي من تلك البلاد الإفريقيّة التي احتلّت اليمن قبل أن يجليها من هناك. ومَنْ يدري، فلربّما كان ذلك اللّون الأسود هو الذي جذب كسرى إلى عنترة، فأحسن معاملته.